الزبير بشير طه رائد تشريح النصوص السيكولوجية في التراث العربي الإسلامي

د. عمر هارون الخليفة*

المسيرة الأكاديمية:

ولد الزبير بشير طه عام 1945 بجزيرة الفيل على ضفاف النيل الأزرق، وهي من أحياء مدينة ود مدني السودانية وذلك بعد 13 سنة من ميلاد بروفسير مالك بدري عام 1932. وعندما كان طه شاباً في السنة الرابعة من الجامعة ترقي بدري لدرجة الأستاذية في علم النفس عام 1971. وتخرج طه بمرتبة الشرف في الفلسفة، كلية الآداب، جامعة الخرطوم عام 1972. ونال درجة ماجستير الآداب في علم النفس الأخلاقي من جامعة بيرمنجهام ببريطانيا عام 1976، ونال درجة ثانية من ماجستير العلوم في علم النفس التجريبي من جامعة سسكس، بمدينة برايتون ببريطانيا عام 1978. وعندما كان طه يعد أطروحة الدكتوراه في السنة الأولي نشر بدري (1979) كتاب "معضلة عالم النفس المسلم". ونال طه درجة الدكتوراه في علم النفس الفسيولوجي من جامعة شيفيلد ببريطانيا عام 1982. وبعد تخرجه تدرج في عدة وظائف أكاديمية إذ تعين محاضرا في علم النفس بجامعة الخرطوم عام 1982 كما درس في الفترة من 1985–1983 بكلية الطب، جامعة الجزيرة، ومحاضراً بالمعهد.

* قسم علم النفس – كلية الآداب جامعة الخرطوم.

العالي للموسيقى والمسرح بين 1985–1982، وترقى لرتبة أستاذ مشارك في علم النفس عام 1986. وعمل أستاذاً زائراً لعلم النفس لمدة خمس سنوات بجامعة الامارات العربية المتحدة في الفترة من 1993–1988، بينما ترقى لدرجة الأستاذية بجامعة الخرطوم عام 1993.

وفي مسيرته الأكاديمية، قام طه بتدريس مقررات متباينة لطلاب علم النفس بجامعة الخرطوم شملت علم النفس الفسيولوجي، وعلم النفس الاكلينيكي، وعلم النفس اللغوي، وعلم نفس الشواذ، وعلم النفس الاحصائي، وعلم النفس الشرعي. فضلاً عن ذلك نرس مقررات في علم النفس المعرفي، وعلم النفس التطبيقي، والشخصية والإبداع لطلاب المعهد العالي للموسيقى والمسرح بالسودان. كما درس مقرراً في علم النفس الاكلينيكي لطلاب كلية الطب بجامعة الجريرة بالسودان. وعلى مستوى الدارسات العليا، درس مقرراً في المقاييس السيكولوجية، وعلم النفس الفسيولوجي لطلاب الدبلومة العليا في علم النفس الاكلينيكي. وعلى مستوى تدريب طلاب الدراسات العليا أشرف على أكثر من 50 طالباً في علم النفس منهم 30 طالباً على مستوى الدكتوراه و20 طالباً على مستوى الماجستير في موضوعات مختلفة في علم النفس من بينها ترجمة وتكييف مقاييس وكسلر للذكاء، ومقياس رورشاخ، ومقياس ايزينك للشخصية، ومقياس مينسوتا المتعدد الأوجه، وفي مجالات أخرى من علم النفس شملت علم النفس الاكلينيكي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس التربوي، وعلم النفس عبر الثقافي.

استهل طه حياته الأكاديمية الإدارية برئاسة قسم علم النفس بجامعة الخرطوم في الفترة بين 1984–1986، وعضواً في مجلس كلية التربية (1985–1987) وكلية الآداب (1982–1988) بجامعة الخرطوم، وعضو مجلس كلية التربية بجامعة الامارات العربية المتحدة (1989) وعضو اللجنة التنفيذية بذات الجامعة (1991– 1992). وبعد عودته من الاعارة عمل نائباً لمدير جامعة الخرطوم في الفترة من 1994–1998 ومديراً لذات

الجامعة من 1998–2000 . وفي عام 2001 تم تعيينه وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي وفي عام 2001 وزيراً للعلوم والتقانة بالسودان.

قام طه بعدة أنشطة مهنية أخري في مجال علم النفس تمثلت في رئاسة تحرير مجلة "دراسات نفسية" التي تصدرها الجمعية النفسية السودانية، وعضوية الهيئة الاستشارية ل "المجلة الأفريقية لعلم النفس الاكلينيكي" 1984، وعضو الهيئة الاستشارية لمجلة "تفكر" التي تصدر عن معهد اسلام المعرفة بجامعة الجزيرة. كما عمل مستشاراً نفسياً لمشروع الصحة المدرسية في الخرطوم 1983–1985، وسكرتيراً للمنظمة القومية السودانية لرعاية الأحداث 1985–1988، وعضو مجلس قرية الأطفال بسوبا الخرطوم، 1986–1988، وكبير أخصائي العلاج النفسي بالخدمات الصحية بجامعة الخرطوم، 1984–1987، وخبيراً نفسياً بوحدة الطب النفسي بمستشفى الخرطوم 1984–1986، كما عمل رئيساً للجنة تطوير دبلومة علم النفس الاكلينيكي فضلاً عن ماجستير علم النفس الاكلينيكي بجامعة الخرطوم، كما أشرف على لجنة تطوير القوانين والنظم الأساسية ولوائح أكاديمية الشرطة بجامعة الرباط 1999. وعلى مستوى منظمات علم النفس عمل رئيساً للجمعية النفسية السودانية منذ عام 1998 كما انتخب رئيساً للرابطة العالمية لعلماء النفس المسلمين في عام 2003. وعملت هاتان المنظمتان على لقاء علماء النفس بعضهم البعض في داخل وخارج السودان وذلك للتواصل والتخطيط وتبادل الأفكار ونشر المعرفة السيكولوجية.

شارك طه في عشرات المؤتمرات المحلية والاقليمية والعالمية وسوف نشير لبعضها حسب تسلسلها التاريخي. وكانت أول مشاركة له بورقة في الاجتماع السنوي للجمعية الصيدلانية البريطانية بلندن 1981 ، وبورقة في ورشة استخدام تقنيات الاحصاء في البحوث الطبية بجامعة الجزيرة بالسودان 1984، وورقة في اجتماع مجلس الأديان العالمي بنيوجيرسي بالولايات المتحدة 1985، وورقة بمؤتمر التربية الاسلامية بمعهد الدراسات الأفرو آسيوية بجامعة الخرطوم 1985، وورقة بمؤتمر المنهجية والعلوم السلوكية الذي نظمته جامعة الخرطوم بالتعاون مع المعهد العالمي للفكر الاسلامي بواشنطون 1987، وورقة في ندوة التنشئة الاجتماعية في أقطار الخليج العربي التي نظمتها جامعة الامارات

العربية المتحدة 1992، وورقة بمؤتمر مدراء ورؤساء الجامعات الذي نظمته رابطة الجامعات الأفريقية بليسوتو، جنوب أفريقيا 1995، وورقة بمؤتمر اليونسكو الخاص بأخلاقيات العلوم والتقانة بأوسلو بالنرويج، 1999، وفضلاً عن ذلك قدم محاضرات عامة بجامعة كويتو باليابان 2002 كما قدم ورقة كمتحدث رئيس في المؤتمر الأول للجمعية النفسية السودانية 2003 والذي ترأس لجنته العليا كذلك.

طه والبحث السيكولوجي

نشر الباحث طه عشرات الأبحاث العلمية المحكمة في علم النفس باللغتين الانجليزية والعربية وذلك في دوريات محلية (السودان)، واقليمية (العالم العربي وأفريقيا) وعالمية (أوربا وأمريكا) كما جرت العادة في تصنيف الأبحاث المنشورة من حيث الجغرافيا. ويمكن تصنيف الدراسات التي قام بنشرها من حيث المشاركة كذلك لأربع مجموعات. نشر بعض هذه الدراسات بمفرده وبعضها بالاشتراك مع علماء النفس في بريطانيا، والبعض الآخر مع زملائه في دول الخليج العربـــي، بينما البعض الآخر مع طلابه بالسودان. ووجه آخر لتصنيف أبحاثه هو المكان الذي تم فيه انجازها، ويمكن تصنيف ذلك لثلاث مجموعات. أولاً: مجموعة من الأبحاث التي قام الباحث بنشرها عندما كان يتدرب في بريطانيا، ومجموعة ثانية عندما أعير للعمل بجامعة الامارات العربية المتحدة، ومجموعة ثالثة تلك التي أنجزها بالسودان. ولكن يلاحظ بأن غالبية الدراسات بل أكثرها قوة تلك التي نشرها الباحث عندما كان يدرس أو يعمل بالخارج. وبصورة أخرى بأنه لم تزدهر أبحاثه الداخلية بالسودان مقارنة بتلك التي انجزها بالخارج. ربما يعزى ذلك للإمكانيات البحثية الكبيرة خارج السودان، والتحكم في عامل الزمن، وقلة الجوانب التي تقلل من تركيز الباحث مثل المجاملات الاجتماعية والأنشطة السياسية التي تأخذ حيزاً كبيراً من الوقت (الخليفة، 2003).

بالنسبة للدراسات المنشورة باللغة الانجليزية في دوريات عالمية استهل طه حياته البحثية بنشر أول دراسة له عن علم النفس الفسيولوجي في مجلة العلوم العصبية عام

1980، وذلك قبل عامين من حصوله على درجة الدكتوراه. كما نشر دراستين في مجلة علم النفس الصيدلاني 1982، ودراسة رابعة عن علم النفس الفسيولوجي بمجلة العلوم العصبية 1984. وكانت جميع هذه الدراسات المنشورة في بريطانيا في دوريات علمية رفيعة عما اسميه بعلم النفس الصلب المرتبط بالفسيولوجيا والتجريب كجزء من علم النفس العام وهي مجالات نادرا ما ينشر فيها علماء النفس العرب. من ناحية تاريخية، يمكن الملاحظة بأن اهتمامات طه البحثية في فترة الثمانينات من القرن العشرين كانت عن علم النفس البحت بينما كانت اهتماماته البحثية خلال التسعينات عن علم النفس التطبيقي. ويمكن القول بصورة أخرى، بأنه كان في بداية حياته البحثية مهتما بتطوير علم النفس بينما في المرحلة التالية بدأ اهتمامه بتطوير المجتمع.

ولكن يلاحظ عند عودة طه للسودان بعد اكمال دراساته العليا في علم النفس ببريطانيا أنه بدأ في نشر الدراسات السيكولوجية الثقافية ذات الارتباط بعلم النفس الثقافي، أو علم النفس عبر الثقافي، أو علم النفس الوطني. مثلاً نشر أول دراسة له في هذا الموضوع عن الظار كوسيلة علاجية في "مرجع علم النفس الاكلينيكي في أفريقيا" والذي نشر في ملاوي وألمانيا 1990 وذلك بعد 8 سنوات من حصوله على درجة الدكتوراه في علم النفس عام 1982. كما نشر دراسة أخرى عن التشخيص والتصنيف والعلاج النفسي العقاقيري في كتاب القانون في المجلة العربية للطب النفسي 1991. ودراسة بالاشتراك مع أخرين عن مرض السحائي الحاد بالنسبة للأطفال في المجلة الاسكندنافية للأمراض المعدية بالسويد 1991 ودراسة عن سيكولوجية النخبة والتغيير الاجتماعي والمنشورة في المجلة الأفريقية العالمية 1999. ويمكن القول بأن طه كان بصورة أولية تجريبياً، وبصورة ثانية تطبيقياً، وبصورة ثالثة ثقافياً في علم النفس. ويرجع ذلك التدرج والتباين، وفقا لشنان (أبريل، 2004) إلى أن مسألة تأصيل علم النفس وتوطينه لا تنفصل عن الهم العام في المسيرة الفكرية الوطنية في عقد الثمانينات في السودان .

وفيما يخص الأبحاث العلمية المحكمة المنشورة باللغة العربية في الدوريات المحلية والاقليمية نشر طه 4 دراسات خلال عام 1990 الأولى عن الفسلجة العصبية في كتاب

القانون والمنشورة في "المجلة العربية للطب النفسي"، والثانية عن أسس وملامح نظريات التعلم في التراث الإسلامي والمنشورة في مجلة "رسالة الخليج العربي"، والثالثة عن العلاقة بين استخدام الخادمة– المربية في التنشئة وبين النمو العقلي للأطفال تحت رعايتهن في الخليج العربي والمنشورة في "مجلة الدراسات النفسية والتربوية"، بينما الرابعة عن سيكوفيزياء الابصار عند ابن الهيثم والمنشورة في "المجلة العربية للطب النفسي". وفي عام 1991 نشر دراسة عن الوظائف الذهنية وألتها العصبية في التراث الإسلامي في "المجلة العربية للطب النفسي ". وفي عام 1992 نشر 3 دراسات محكمة في دوريات عربية منها النمو العقلي بين ابن طفيل وجان بياجيه والمنشورة في "حولية كلية التربية"، والاستقرار الأكاديمي لدى طلبة كلية التربية في جامعة الامارات والمنشورة في "مجلة التربية" بجامعة الامارات، والعلاقة بين التحصيل والتكيف ومتغيرات القبول في "شؤون اجتماعية"، كما نشر دراسة بالاشتراك مع أحمد شنان عن أصول المفاهيم النفسية في التراث الإسلامي في ""سلسلة المنهجية الاسلامية والعلوم السلوكية".

بينما نشر طه في عام 1995 دراستين الأولي عن سيكولوجيا التراث العربي الإسلامي وتأثيرها على علم النفس المعاصر والمنشورة في "مجلة التأصيل"، والثانية بالاشتراك مع آخرين عن تكييف وتقنين مقاييس الذكاء في الثقافة العربية والمنشورة في "المجلة العربية للتربية" بتونس. كما نشر دراستين في عام 2002 عن الرعاية المجتمعية للمعاقين وعلاقتها بالرعاية المؤسسية والمنشورة في "مجلة دراسات نفسية" التي تصدرها الجمعية النفسية السودانية، ودراسة عن تدريب الأطفال المصابين بالشلل الدماغي على مهارات الحياة اليومية والمنشورة في المجلة ذاتها، بينما نشر دراسة في عام 2003 عن الاحتراق المهني وسط معلمي التعليم الأساسي والمنشورة في "مجلة دراسات تربوية"

أما على صعيد الكتب فقد نشر طه كتاب "علم النفس في التراث العربي الاسلامي" بواسطة دار جامعة الخرطوم للنشر عام 1995 والذي سوف نتطرق له لاحقاً، وكتاب "تأهيل ذوي الحاجات الخاصة داخل المجتمع" بالاشتراك مع رقية السيد في عام 2002

والمنشور بمطبعة الحرية بأمدرمان. بالإضافة لهذه الدراسات العلمية والكتب المنشورة هناك عدد من المشاريع البحثية الجارية التي يقوم الباحث بأجرائها. ويلاحظ بأن هناك وجه شبه بين طه وبدري في بداية تأليفهما لكتب علم النفس بعد فترة كافية من نشر البحوث السيكولوجية في الدوريات العلمية الاقليمية والعالمية. إذ نشر بدري أول كتاب له عن "سيكولوجية رسوم الأطفال" عام 1964وذلك بعد ثلاثة سنوات من حصوله على درجة الدكتوراه عام 1961 ، ونشر كتابه الثاني عن "علم النفس العام " عام 1974 بينما نشر طه أول كتاب له عام 1995 وذلك بعد 31 سنة من حصوله على الدكتوراه عام 1982.

طه وقوة تأثيره على طلابه:

بعد عودة طه من البعثة الدراسية ببريطانيا عام 1982 توافد عليه طلاب الدراسات العليا جماعات ووحداناً من داخل وخارج السودان للتحضير معه في علم النفس. هناك حوالي 30 رسالة ماجستير ودكتوراه قام بالإشراف عليها في جامعة الخرطوم لوحدها خلال 16 سنة في الفترة من 1986 وحتى 2002 (عطـــاء الله والشيخ، 2003). وهناك عدد آخر من رسائل الدراسات العليا التي أشرف عليها الباحث ولكن ليس هناك توثيق دقيق بالنسبة لها. ولهذا السبب سوف أكتفي بتلك المقدمة في جامعة الخرطوم والتي يمكن تصنيفها لثلاث مجموعات بحثية : المجموعة الأولى يمكن النظر إليها باعتبارها عن علم النفس البحت أو العام أو ما أسميه بعلم النفس الصلب. والمجموعة الثانية عن علم النفس التطبيقي أو ما أسميه بعلم النفس الرخو، بينما المجموعة الثالثة عن علم النفس في التراث العربي الإسلامي أو تاريخ علم النفس أو ما أحب أن أسميه بتشريح النصوص السيكولوجية في التراث العربي الإسلامي. ربما يحس طلاب الماجستير والدكتوراه في السودان بالأمان أكثر في حالة تحلقهم حول حلقة طه العلمية بجامعة الخرطوم .

وإذا وددنا أن نتناول تأثيرات الاهتمامات البحثية الخاصة بطه على طلابه في علم النفس وعلاقتها بهذه التصنيفات الثلاثة نجد أن مجموعة أبحاثه الأولى والخاصة بعلم النفس التجريبي والتي نشرها في بريطانيا انعكست في رسالة دكتوراه واحدة أشرف عليها في علم النفس الفسيولوجي عن افراز الغدة الدرقية، بينما انعكس تأثيره في المجموعة الثالثة من

الأبحاث الخاصة بعلم النفس في التراث العربي الإسلامي في رسالة دكتوراه واحدة عن فكر الامام المحاسبي وهناك دراسة جارية أخرى عن الذكاء عند ابن الجوزي. بينما كان التأثير الأكبر له على طلابه في الموضوعات أو المجالات المتعلقة بعلم النفس التطبيقي وعلم النفس الثقافي. وحسب التصنيف الذي قمت به، وربما يحتاج لتدقيق أكثر، انعكس الاهتمام البحثي لطه على طلابه في 7 رسائل في علم النفس التربوي، و4 في علم نفس الشواذ، و4 في القياس النفسي، و3 في علم نفس النمو، و2في علم النفس السياسي، و 2 في علم النفس الاجتماعي، و2 في علم النفس عبر الثقافي، و2 في علم النفس الصناعي، و 2 عن علم النفس في التراث العربي الإسلامي، و في علم نفس الشخصية، و في علم النفس البيئي.

بوسعنا التساؤل لماذا لم تنعكس عملية اشراف طه على كم هائل من رسائل الماجستير والدكتوراه في بحوث منشورة بالاشتراك مع طلابه كما جرت العادة في الغرب أو في بعض الدول العربية؟ غالبا ما تنشر ما بين دراسة لأربع دراسات من الرسالة الواحدة في دوريات سيكولوجية علمية. ونتساءل كذلك لماذا ظلت هذه الرسائل بالرغم من جديتها ومعالجتها لموضوعات في غاية الأهمية حبيسة في مستودعات الجامعة وفي أرفف المكتبات الخاصة؟ ربما تكمن الاجابة في زهد المشرف من النشر المشترك مع طلابه أو عدم وجود الوقت الكافي له في كتابة مخطوطات قابلة للنشر. أو ربما يعزى السبب في عدم وعي أو حماسة طلاب الدراسات العليا في السودان في أهمية استلال مخطوطات من رسائلهم العلمية وتقديمها للنشر. غالباً ما تحتاج عملية بداية النشر لمجهود كبير وصبر ومراجعة وتدقيق وربما ترفض المخطوطة ويسبب ذلك الرفض إحباطا للباحث المبتدئ . أو ربما تكمن الإجابة في طبيعة الثقافة السودانية والتي توصف في أحايين كثيرة بالشفاهية والتي لا تعطي أهمية أو قدرا كبيرا للثقافة الكتابية والتوثيقة.

ونتساءل كذلك في جانب آخر لماذا لم تؤثر الاهتمامات البحثية المبكرة لطه – سواء أكان على مستوى تدريبه في الدراسات العليا في بريطانيا أو مستوى ابحاثه المنشورة في علم النفس الفسيولوجي وعلم النفس التجريبي – خاصة – على طلابه في الدراسات العليا

في علم النفس بخلاف رسالة واحدة عن افراز الغدة الدرقية؟ ربما تكمن الاجابة في نوعية التدريب بالنسبة لعلماء النفس العرب في الغرب، إذ يتدرب هؤلاء الباحثين على تقنيات عالية في البحث العلمي في الجامعات الغربية في معامل علم النفس الفسيولوجي، ومخابر الفيزياء، ومعامل التشريح ولكن عند العودة يصطدم هؤلاء الباحثين بعدم توفر البيئات البحثية المثالية التي تدربوا عليها. ولهذا السبب لم يتم استقبال علم النفس التجريبي أو علم النفس البحت في العالم العربي انما تم استقبال علم النفس التطبيقي بصورة أفضل. ولذلك كان تأثيره على طلابه هائلا في المجالات التطبيقية والثقافية لعلم النفس. وملاحظة أخرى جديرة بالاهتمام بأنه كان موسو عيا في علم النفس إذ قام بالإشراف على طلاب الدراسات العليا في معظم أفرع أو موضوعات علم النفس. ربما يكون هذا النوع من الاشراف الموسع هو الذي نحتاج له في هذه المرحلة من مراحل تطور ونمو علم النفس في العالم العربي أكثر من الأبحاث الذرية والتخصصية الضيقة.

نقل طه شغفه بالتدريس والبحث والإشراف والممارسة الاكلينيكية إلى مجموعة من طلابه المبكرين. وجذب قسم علم النفس في الثمانيات والتسعينات بجامعة الخرطوم عشرات الطلاب الذين برزت أسماؤهم فيما بعد في خارطة علم النفس في السودان وفي بعض الدول العربية. ويمكننا القول بصورة مأمونة بأن اشراف طه أعطى دفعاً حاسماً لمسيرة علم النفس يمكن تقديره خاصة من خلال قائمة طلابه الأوائل الذين حظوا باهتمام أكبر منه. ومن قوة تأثيره على مريديه أصبح البعض منهم باحثين متميزين أو مشرفين بارعين على طلاب الدراسات العليا يعطون الإجازة العلمية لآخرين في علم النفس. ومن بين هذه المجموعة الأولى، علـــى سبيل المثـــال لا الحصر، أحمد شنان في علم نفس النمو والصحة النفسية بجامعة الجزيرة وهو أول طالب نال درجة الماجستير من الذين أشرف علي رسائلهم عام 1986، ومحمد محجوب هارون في علم النفس السياسي والذي برز كخبير في مجال الاعلام خاصة، وعمر هارون الخليفة في الذكاء والابداع، ومحمد صلاح خليل في علم النفس المعرفي –العصبي، وعباس العبيد في علم النفس الصناعي بأميفارما، وعبد الرحمن عثمان في علم النفس الاكلينيكي بجامعة أمدرمان الإسلامية، ونجاة فتحي في علم

النفس الطبي بجامعة أو هايو بأمريكا.

كما تشمل مجموعة قائمة طلاب طه كذلك رقية السيد في علم نفس الفئات الخاصة، وعبد الباقي دفع الله في علم النفس التربوي، وعبير عبد الرحمن في علم النفس السياسي، وفاطمة محمد الخير في علم النفس البيئي بجامعة الخرطوم، ومحمد عبد المجيد في علم النفس الاكلينيكي بالسلاح الطبي، وأماني عبد الله في علم النفس الابداعي وعلم نفس المخابرات بجامعة الرباط، وفاطمة الجيلاني في تاريخ علم النفس بجامعة أم درمان الإسلامية، وعثمان ابراهيم في علم نفس النمو، وأسامة الجيلي في الصحة النفسية بجامعة النيلين، وسعاد موسى في علم النفس الأسري وحرم بدري في علم نفس النمو بجامعة الأحفاد، ومريم المبشر في علم النفس الصناعي، وانتصار أبو ناجمة في علم النفس التربوي، وعبد الله عبد الرحمن في علم النفس الصحي، وسيف الدين موسى في علم النفس الاجتماعي بالامارت العربية المتحدة، وصلاح الجيلي في علم النفس الاكلينيكي بالسعودية، وعائشة عبد الكريم والنور النعيم في علم النفس الاكلينيكي بقطر، واسحاق جامع في علم النفس الفسيولوجي بجامعة الفاشر، وأنور عبد العزيز في علم نفس الشواذ، وماجدة شاذلي في علم النفس الاكلينيكي، وربما يصبح قريباً بعض طلاب طلابه مشرفين على الدراسات العليا في علم النفس في السودان وبقية الدول العربية. مثلاً، أشرف شنان على 14 رساله على مستوى الماجستير و5 على مستوى الدكتوراه بجامعة الجزيرة، فضلاً عن ذلك نشر واحدة من الدراسات في مجال علم نفس النمو عن "مشكلات الطفولة في المدينة السودانية" والتي اقتبست كثيراً حول العالم بما في ذلك إسرائيل كما تأسست على هذه الورقة رسالتا دكتوراه إحداها بجامعة لندن حيث تم تطبيق نموذج الدراسة في كوريا الجنوبية، والرسالة الثانية بجامعة ساوثهامتون وهي عبارة عن محاولة لتكييف نموذج الدراسة على الأسر الأسيوية المستوطنة في بريطانيا (Al-Awad & Sonuga Barke1992،). وغير هؤلاء الطلاب السودانيين هناك مجموعة من الطلاب العرب في بريطانيا والسعودية وفلسطين

وليبيا الذين تدربوا وتأثروا بمساهمة طه في علم النفس ربما بذات درجة التأثير القوي لفرويد على طلابه.

وأكمل بعض طلاب طه دراساتهم العليا على مستوى درجة الدكتوراه في الغرب خاصة بريطانيا وأمريكا وألمانيا، وكذلك اليابان بينما تدرب البعض الآخر في السودان. وبعد اكمال دراساتهم العليا واصلوا مشوار استاذهم ونشروا أفرع ومدارس علم النفس المختلفة في السودان. وقام بعضهم بتأسيس وافتتاح أقسام علم النفس في الجامعات الناشئة بالخرطوم وبقية ولايات السودان. وحاولت بعض هذه الأقسام تكييف علم النفس لينسجم مع البيئة الجديدة في السودان استلهاما للتدريب الذي نالوه مع أستاذهم خاصة في علم النفس التطبيقي وعلم النفس الثقافي. ونتيجة للضغوط الاقتصادية في السودان هاجر بعض طلاب طه للعمل خارج السودان خاصة في دول الخليج العربي واكتسب بعضهم مهارات وتقنيات عالية في الممارسة في مجال الصناعة والعلاج النفسي والبعض الأخر في البحث العلمي. ويتوقع أن يعود هؤلاء للسودان بدرجة عالية من الحماس لتوطين علم النفس في السودان الجديد. لقد بشر طه في كتاباته بموضوع "تأصيل علم النفس" وإن التحدي الذي يجابه هذه المجموعة من طلاب علم النفس هو نقل موضوع "توطين" علم النفس من البشارة للواقع ومن إطار القبول إلى اطار الهضم والاستيعاب. وإن الافتراض الرئيس بأن علم النفس لا يمكن أن يستجيب للحساسية الثقافية للأفراد والجماعات في العالم العربي من غير عملية تكييف صارم ويعتبر هذا شرطا هاما ليس في توطين علم النفس فحسب وإنما في تأسيس علم النفس الوطني .

طه وبعض المساهمات العامة مع رؤى من طلابه

يمكننا النظر لمساهمات طه المشاهدة في الحياة العامة في السودان من خلال عدة زوايا فإنه باحث (نشر عشرات الأبحاث العلمية الرصينة)، وأستاذ (قام بتدريس عدة مقررات في علم النفس)، وخبير نفسي (مارس مهنة العلاج النفسي بالخرطوم)، ومشرف على البحوث (أشرف على عشرات طلاب الماجستير والدكتوراه في علم النفس من السودانيين والعرب)،

ومؤسس لمنظمات علم النفس (الجمعية النفسية السودانية والرابطة العالمية لعلماء النفس المسلمين)، واداري (تقلد عدة مناصب ادراية ووزارية)، وسياسي (عضو ملتزم ونشط بالمؤتمر الوطني) ومجاهد (شارك في عدة معارك حربية). ولكن ما يهمنا في هذا الكتاب هو دوره كباحث في علم النفس في المقام الأول. ولا يعني ذلك عدم اهتمامنا بتلك الجوانب الأخرى والثرة في حياة طه. وبوسعنا التساؤل عن تلك الأدوار المتباينة والكثيرة في شخصية طه ومدى تأثيرها على خارطة علم النفس في السودان. هل موقفه كباحث وعالم نفس هو الذي ترك تأثيراً على الجوانب الأخرى في حياة طه (السياسية والإدارية والجهادية) أم أن هذه الجوانب الأخرى هي التي تركت أثرا كبير في مساهمة طه العلمية الكبيرة في علم النفس في السودان؟ فأيهما السبب وأيهما العرض؟

لقد أشرنا في بداية هذه الدراسة بأن طه نال درجة ماجستير الآداب في علم النفس الأخلاقي من جامعة بيرمنجهام ببريطانيا عام 1976 ، وبعد سنتين من ذلك نال درجة ثانية من ماجستير العلوم في علم النفس التجريبي من جامعة سسكس، بمدينة برايتون ببريطانيا عام 1978. كما نال درجة الدكتوراه في علم النفس الفسيولوجي من جامعة شيفيلد ببريطانيا عام 1982. إن هذه التخصصات الاجتماعية والانسانية(علم النفس الأخلاقي) والعلمية البحتة (علم النفس التجريبي والفسيولوجي) ربما تشكل نقطة قوة في وضعية طه كوزير للعلوم والتقانة والذي يجمع بين تخصصات متباينة غاية التباين يصعب أن تجد مثال لها. وهناك أهمية خاصة للقاعدة الاجتماعية والثقافية في عملية ترقية وتوطين التقانة في السودان والتي تبدأ بالإنسان في المقام الأول. وفقاً لهذا الفهم يستطيع طه أن يجد لغة مشتركة مع الباحثين التجريبيين في الوزارة. وربما يفسر ذلك سر النجاح في عملية تأسيس وهيكلة هذه الوزارة الوليدة.

هناك عدة جوانب قوة في مساهمات طه السيكولوجية إذ أصبح كتابه "علم النفس في التراث العربي الإسلامي" مرجعا يدرس في جامعات السودان والسعودية والامارات وطبعت منه ثلاث طبعات بهذه الدول العربية. وهناك فكرة جارية لطباعته في لبنان وربما ترجمته

للإنجليزية، وذلك لأهميته في ارساء ملامح لكيفية التعامل مع النص السيكولوجي وتشريحه في التراث العربي الإسلامي. وجانب آخر يتمثل في تأثير طه ليس على طلاب علم النفس فحسب وإنما طلاب كليات الآداب والتربية والطب والقانون والموسيقى والمسرح في السودان. ويستطيع طه أن يدير عدة اجتماعات ولقاءات ولساعات طوال من الزمن في اليوم الواحد ومن غير أن يفقد حماسه أو تقل طاقته مع أن مجموعة من الاخرين يفقدون التركيز المتواصل . و يستطيع أن يلخص ويهضم أفكار طلابه في علم النفس ويحولها لأفكار ومشاريع بناءة كما يستطيع أن يدفع مجموعات كبيرة من حوله في نشاط هادف فإنه نموذج ممتاز لعالم النفس الذي يعزز الدافعية عند طلابه بصورة غير عادية، و فوق كل ذلك رصيده اللامتناهي من بعد النظر أو الرؤى.

إن محاولة توثيق المساهمة العلمية لأستاذ من قبل أحد طلابه تجعل الأخير في حالة من التوتر النفسي بين موضوعية الحياد العلمي الذي يجب أن يلتزم به مؤرخ علم النفس من جهة، وبين عاطفة الطالب نحو استاذه من جهة أخرى. وفي كثير من الأحايين قد تصعب عملية التمييز الدقيق ما بين الموضوعي والذاتي. ولكن بقدر الامكان يحاول الطالب رصد مساهمات أستاذه بموضوعية. وربما يكون من الأفيد في هذه الحالة الاستعانة بوجهات نظر أخرى من قبل طلاب طه. يشير البعض بأنه رغم حدة التزامه السياسي فقد كان مقبولا ومحبوبا بين طلاب علم النفس عامة بجامعة الخرطوم. وأنه يجابه أعقد المشاكل بأساليب ناجعة لحلها. تقول عزة الهادي (يناير 2004) بأن طريقة تقديمه للمحاضرات كانت واضحة وممتعة ومركزة وكانت له شعبية كبيرة ولهذا السبب يفضل الطلاب اختيار المقررات التي يدرسها وحتى لو لم يكن الطالب متخصصا في علم النفس بكلية الآداب. بينما تقول عبير خليل (يناير 2004) كانت له طريقته المختلفة في التدريس فالذي يجلس لتلقي المحاضرة منه يحس بأنه فرد فعال في المحاضرة . كما له أسلوبه الخاص في الاشراف فقد تكون الساعات التي يقضيها الطالب معه قليلة ولكن حجم الاستفادة منها كبير. ويعتمد حجم استفادة الباحث منه على شخصية الباحث نفسه وهذه طبيعة الحال في مجال البحث العلمي.

ووفقاً لعبد الباقي دفع الله (فبراير، 2004)، رئيس قسم علم النفس بجامعة الخرطوم، أن لبروفسير الزبير عقلية وقادة ومقدرة فائقة على توليد الأفكار وتشعيبها، كما أنه يستطيع ربط المفاهيم النفسية العميقة بأمثلة من الواقع السوداني الشعبي، وقد لا أنسى مثاله عن الاسترخاء بالمسوح بزيت القلقل (زيت البذرة). وقد لا أتفق مع من قال باستفادة كل باحث من بروفسير الزبير خاصة الباحث الذي لا يستطيع أن يبدع في مجاله، فالذي يستفيد منه فقط الذي تزيد معرفته عن أسس البحث، فهذا النوع من الباحثين سيستفيد من هذه العقلية الجبارة. وإذا سمح لي أن اقول شيئاً أدعو بروفسير الزبير للحضور لمكتبه بقسم علم النفس ويتفرغ لطلاب علمه من الطلاب والأساتذة.

وتضيف حرم بدري (يناير، 2004) بانها تعلمت فن الإشراف من خلال العمل معه. وإن قاعدة التواصل مع طه هي عملية العصف الذهني المستمر. وعندما يأتي الطالب لمناقشة أطروحته العلمية تكون له حصيلة كافية من المعلومات والمعرفة فضلاً عن الثقة في النفس. وتكون مناقشة الطالب لبعض النقاط معه كالمناقشة بين زميلين يعملان مع بعض بصورة منسجمة. وبالرغم من أن للطالب كامل الحرية للتعبير عن وجهة نظره لكنه يشعر بأنه تحت إشراف موجه كثير الحماية لطلابه. وعند المناقشة يكون طه أكثر وقوفا بجانب الطالب، حقيقة إن العمل معه تجربة تعليميه مثمرة.

يقول الناقد أبو القاسم قور (مارس، 2004) كنت ضمن فئة تقاسمت زمنها بين جامعة الخرطوم ومعهد الموسيقى والمسرح واطلقت على نفسها فئة "المشايين" التي جعلت من الزبير بشير رئيس قسم علم النفس بجامعة الخرطوم وأستاذ علم النفس الابداعي أنذاك بمعهد الموسيقى والمسرح محوراً لها. وكان طه يحرص على تدريس مادة علم النفس الإبداعي كما أصبح مكتبه بجامعة الخرطوم ملتقى يجمع من طلابه من تنافروا آيديولوجياً. كنا مجموعة من الاسلاميين المتمردين الذين وقعنا في المدى المغنطيسي لطه الذي لم يتأفف من معهد الموسيقى والمسرح ديدن بقية الإسلاميين. ولم يتحوقل أو يستعذ بالله منا، بل

كرس جهده ليثبت اقدامنا ويعلمنا بأننا في مكان مهم لطفرة الأمة. وسيظل طه سحابة أينما هطلت عمت بخيرها أبناءه وبناته.

ويضيف أحدهم بأن ما يميز شخصية طه أنه انسان مبدئي، وفي الوقت نفسه لديه قدرة غير عادية في التعامل مع من يختلفون معه فكرياً وعقائدياً. ربما يساعده على ذلك قدرته الفائقة على قراءة ملامح الشخصية التي تعامل معها بالإضافة إلى رحابة صدره، وأفقه الواسع الذي يجعله يتفهم آراء ومواقف الآخرين حتى ولم يكن معها. عند مناقشة أمر ما يستخدم طه أسلوب العصف الذهني لدفع الأخرين ليستخرجوا كل ما بذهنهم من رؤى وافكار . ويستطيع بكارزمية خاصة تفجير طاقات كل من حوله للقيام بعمل ما مع كل ما يتطلبه ذلك من جهد وتحمل . وهو بالإضافة إلى ذلك إنسان كمالي يولي اهتماما كبيرا للتفاصيل الدقيقة لأي عمل مهما كان حجمه وقيمته. إن الاحترام اللامتناهي الذي يكنه الآخرون له ينبع من احساسهم بصدقه مع ذاته ومعهم. ولكن فوق كل ذلك فإن أهم ما يميزه هو ذلك الدفيء الانساني الذي يشع منه ليصل بقوة إلى كل من يعرفه. إنه حقيقة شخصية متفردة و"خاصة" شكلت إضافة نوعية لرصيدي في العلاقات الانسانية.

ربما يمكن التوقف والتساؤل هنا ما هي العوامل وراء هذا النموذج الفعال من الذكاء الاجتماعي من جهة والذكاء الوجداني من جهة أخرى؟ يعرف الذكاء الاجتماعي بأنه القدرة على الاستبصار وإدراك أمزجة الاخرين ومقاصدهم ودوافعهم ومشاعر هم والتمييز بينها ويؤدي ذلك لتكوين علاقات حميمة معهم. ويتطلب الذكاء الوجداني مهارتين هما إدارة الذات وتفهم الآخرين. ووفقا لهذا التعريف ربما تكون هناك عوامل كثيرة كان لها دورها الفعال في البناء المعماري لشخصية طه وذكائه الاجتماعي والوجداني. ربما كان يتميز بموهبة طبيعية فطرية في الصغر، وتدريب صارم ومثابرة في الكبر، فضلا عن طبيعة تأملاته وتبصراته المعمقة في علم النفس، ويضيف الخطيب (فبراير، 2004) أن أهم العوامل من غير علم النفس هو انتماء والتزام طه في الحركة الإسلامية.

طه وبناء علم النفس في السودان

كرس طه فترته بقسم علم النفس بجامعة الخرطوم لبناء هياكل علم النفس وسوف يظل الأكثر تأثيراً في تاريخ علم النفس في السودان. وخرج علم النفس بفضل مساهماته من "رحم" شعبة علم النفس بجامعة الخرطوم إلى رحاب الجامعات الأخرى. إن مساهمة طه الكبيرة في بناء علم النفس في الخرطوم بالسودان ربما تشبه مساهمة فونت في بنائه لعلم النفس في مدينة لايبزج بألمانيا . بينما تمثل مساهمة بدري والذي سوف نتحدث عنه لاحقا مساهمة هلمهولتز في تأسيس البصريات الفسيولوجية. الجدير بالذكر لقد تدرب فونت في معمل أستاذه هلمهولتز في ألمانيا ويطلق طه على بدري لقب استاذه كذلك في علم النفس. ووجه شبه آخر بين فونت في ألمانيا وطه في السودان بأن الأول كتب في بداية حياته العلمية كتاب "علم النفس الفسيولوجي" وكتب في السنوات الأخيرة من حياته عدة مجلدات عن "علم النفس الفلكلوري". بينما نشر طه أبحاثه المبكرة عن علم النفس الفسيولوجي وأبحاثه الأخيرة عن علم النفس في التراث الشعبي.

ولكي نقرب المثل بصورة أخرى من خلال تجربة أمريكا مع علم النفس مقارنة بتجربة السودان إذ يمثل طه دور استانلي هول الذي تدرب في معمل فونت بألمانيا والذي قام ببناء معامل علم النفس الجديدة في امريكا بينما يمثل بدري موقف وليم جيمس الذي بشر بعلم النفس في البيئة الجديدة من خلال كتابه الشهير "أسس علم النفس" كما عمل على نقد علم النفس المستورد من ألمانيا وادانته. وقام بدري كذلك بالدور نفسه في نقد علم النفس الغربي وإدانته في كتابه "معضلة عالم النفس المسلم" وأضاف أهمية البعد الروحي في سلوك الانسان . وعموما ربما يمكن القول بأن التقدم الملحوظ لعلم النفس في السودان فيما بعد بدري يعود لطه. وبلغة ثانية بأن بنيات علم النفس خاصة في الجامعات السودانية الناشئة تعود لمساهمات طه بينما يعود استلهام علم النفس في السودان لبدري.

وسوف يكون تاريخ علم النفس في السودان مدينا لمساهمة بدري وطه العملاقة في علم النفس. ونسبة لقوة تأثيرهما على طلاب علم النفس جعلت بعض الباحثين يتحدثون عن

"مدرسة الخرطوم لعلم النفس" التي تأثرت بالثقافات الأفريقية والعربية والإسلامية. فقام طه عبر محاضراته وبحوثه وتلاميذه بتطوير المعرفة بعلم النفس والعمل على توطينه في السودان وتبني الدعوة لجمع مجهودات واسهامات علماء النفس في السودان والعمل على بلورتها بصورة تمكن من إعطاء ملامح لمدرسة سودانية في علم النفس (كردمان، 2003). ربما تعبر هذه المدرسة من ناحية سيكولوجية عن السلوك والتفكير والوجدان السوداني، وبلغة أخرى ربما تعكس الذاكرة الجماعية لمختلف التأثيرات الثقافية السودانية في حقب تاريخية مختلفة من حضارات كوش وكرمة ونبتة ومروي والفترة المسيحية والاسلامية. وفقا لهذا المنظور فمدرسة الخرطوم في علم النفس ربما تكون مثال لسودنة علم النفس بحثا عن هوية محلية تراعي الحساسية الثقافية لسلوك الأفراد والجماعات. ولكن بوسعنا التساؤل هل انبثقت هذه المدرسة نتيجة لصراع مع علم النفس الغربي أم نتيجة لعوامل داخلية بحتة ترتبط بشدة الالتزام بالواقع المحلي؟ أم هي استجابة لتحقيق مصالحة ما بين الداخلي والخارجي وبين الوافد والوطني؟ هل هناك بيان او منفستو يعكس فلسفة هذه المدرسة من حيث ما هي وماذا وكيف ومتى وأين؟ أم هي مجرد صدى لمدرسة الخرطوم في الفن التشكيلي؟

بوسعنا التساؤل ماذا يحدث لو طلق طه الحياة السياسية والإدارية للأبد وتفرغ كلية لمحراب العلم في قسم علم النفس بجامعة الخرطوم تدريسا وإشرافا واستشارة وبحثاً؟ ربما يمكننا القول بأن هذه الحياة والتي تعالج قضايا عاجلة ويومية قد أخذت وقتاً ثميناً من حياة طه على حساب موهبته البحثية الفذة في علم النفس. في تقديري، ربما يكون هناك كثر من الأفراد الذين لهم الاستعداد النفسي لأداء المهام السياسية والادارية والجهادية ولكن هناك قلة للبحاثة من الطراز الأول. الجدير بالذكر مازال قسم علم النفس بجامعة الخرطوم يحتفظ بلوحة اسمه معلقة ومثبتة بقوة على بوابة مكتبه على أمل العودة إليه عاجلاً أم آجلاً. وإذا تم التمعن في قراءة السيرة الذاتية بدقة لطه فإنها سيرة لا تعكس إلا صورة واحدة هي صورة عالم النفس، وبلغة أكثر دقة،

سيرة الباحث.

بوسعنا التساؤل ماذا يكون تأثير عقلية جبارة ودماغ نشط، وذهن متقد، ودافعية عالية، وحماسة شديدة في البناء السيكولوجي لشخصية طه على مستقبل نمو وتوطين علم النفس في العالم العربي؟ ماذا يكون لو واصل مشروع حفرياته الايكولوجية وتشريحه لنصوص التراث السيكولوجي العربي الإسلامي وتحقيقه للكم الهائل من مخطوطات علم النفس في مستودعات مكتبات التراث العربي الإسلامي في الاسكوريال بأسبانيا، والفاتح باستانبول، ومعهد الويلكم بلندن واكسفورد والبندقية بإيطاليا، والصالحية بدمشق، فضلا عن مكتبات القاهرة، والاسكندرية، وطهران، وبغداد؟ هل يا ترى يقتطع طه حاليا وقتا ثمينا من مهامه الادارية والسياسية للعمل البحثي في مواصلة تقديم كشوف جديدة في علم النفس؟ أو على الأقل أن يقضي لاحقا معاشه في التبصرات السيكولوجية كما فعل بدري الذي ألف أهم كتبه عن "الايدز" بعد 36 سنة من نيله للدكتوراه وهو في الخامسة والستين من عمره.

ريادة طه لحركة تشريح النصوص في التراث العربي الإسلامي

ربما يمكننا التوقف قليلا هنا أو الاكتفاء بهذا الجزء من مساهمات طه العامة والهامة في حقل علم النفس والتركيز على ريادته لحركة البحث المعمق في التراث العربي الإسلامي. وبعد 16 سنة من نشر كتاب "معضلة عالم النفس المسلم" لمالك بدري 1979 قام طه بمواصلة مشوار بدري بوضع معالم لكيفية حفر وتفكيك النصوص السيكولوجية في كتابه القيم "علم النفس في التراث العربي الإسلامي" عام 1995. وتم عرض الكتاب أولا في كتاب الخليفة (2001) "علم النفس التجريبي في التراث العربي الإسلامي". كما تم عرض الكتاب ثانيا بواسطة شنان (2002) والذي وصف الكتاب بأنه جهد أصيل في جمع جواهر المعرفة النفسية المبثوثة في متون التراث وحواشيه المتناثرة، وتصنيفها وتبويبها على نحو معاصر بلغة رصينة وأسلوب علمي محكم، فضلاً عن الاستيعاب الشمولي لمباحث وأصول المفاهيم النفسية في التراث، مع الدقة في رصد المتوازيات العصرية لها، مما يقف دليلا على امكانية تجديد التواصل المعرفي عبر الأجيال وتوطين الثقة في النفس بأهلية العطاء

العلمي الرفيع.

ونحاول أن تختصر بقدر الإمكان في عرض الكتاب منعا للتكرار. غطى الباب الأول من الكتاب مفهوم التراث وخصائص علم النفس في التراث الإسلامي ومصادر سيكولوجيا التراث. وغطى الباب الثاني الفسلجة العصبية في كتاب القانون، والباب الثالث: النمو العقلي بين ابن طفيل وجان بياجيه، والباب الرابع: سايكوفيزياء الإبصار عند ابن الهيثم، والباب الخامس: الوظائف الذهنية وألتها العصبية في التراث الإسلامي، والباب السادس: أسس وملامح نظرية التعلم في التراث الإسلامي، والباب السابع الذكاء لدى الإمام ابن الجوزي، والباب الثامن: اضطرابات الذهان وأدويتها النفسية والباب التاسع: كيف تأثر علم النفس المعاصر بسيكولوجيا التراث وفيه عالج الباحث قضية التأصيل الإسلامي لعلم النفس وبأن التراث أحد مواردها.

يقول المؤلف، بتواضع العلماء، في تقديم خطة كتابه مبينا حدود مؤلفه: "لم يكن من أغراض هذا الكتاب وليس في استطاعة مؤلفه الإحاطة بكافة المباحث النفسية في التراث الإسلامي، غير أنه كان من الضروري هنا تحديد الإسهامات السيكولوجية الرئيسية في هذا التراث وتحليل مفرداتها بمستوى معمق نسبياً، ومن ثم محاكمتها إلى الأدب السيكولوجي المعاصر" (ص. 21). وفي تأليفه للكتاب تنازع المؤلف اتجاهان متنافران، على حسب تعبيره : "الاتجاه الكمي التجميعي، والاتجاه النوعي التحليلي وقد آثر المؤلف الموازنة بين الاتجاهين مع تركيز على الثاني" (ص. 21). ويرصد المؤلف بملاحظة ذكية عدم وجود موسوعة واحدة جامعة للمعارف السيكولوجية مبينا أنها: " معارف مجزأة بعضها في كتب التراث وبعضها في المصنفات الحديثة وبعضها نتاج جهود مؤسسية وبعضها بشكل مبادرات محدودة قام بها الأفراد. فالقصة الكاملة لسيكولوجيا التراث، إذن، لم تكتب بعد" (ص. 27). ولكن يبدو أن الباحث لم يكن أول من كتب فصلا كاملا عن قصة علم النفس في التراث العربي الإسلامي فحسب وإنما محاولة تأصيله كذلك (أنظر الخليفة، 2001، طه، 1995).

في علم النفس الغربي فإن الفيسيولوجيين في نهاية القرن التاسع عشر كانوا في حالة شك في وجود الارتباط بين العقل والدماغ. مثلاً ذكر بيشان بأن مراكز الانفعالات في الأحشاء الداخلية. وكان معظم الفيسيولوجيين الفرنسيين يحملون الرؤية نفسها وحددوا مراكز الانفعالات في الإمعاء. ويلاحظ بأنه حتى بدايات القرن العشرين مازال علماء النفس الفيسيولوجيون في الغرب يبحثون عن هذه المراكز، ومن ثم وجدوها، وتحدثوا عنها، ولكنهم لم يشيروا لماهيتها. وتبعاً لذلك يعتبر هؤلاء العلماء ارتباطيون يعتقدون أن الألياف العصبية تعمل علـــى انتقال الاشارات من نيورون إلى آخر وفي النهاية من المستقبلات للمؤثر في العضلات أو الغدد (بورنج، 1957). من ناحية تاريخية، يلاحظ بما لا يترك مجالا للشك بأنه منذ النصف الأول من القرن الحادي عشر عمل ابن سينا على تحديد هذه المراكز في الدماغ (الخليفة، 2001). ووفقا لطه (1995) فإن "فكرة تنسيب الوظائف الذهنية إلى المناطق الدماغية فكرة متكررة في كتابات ابن سينا. فقد أوردت في القانون وبصورة أكثر تفصيلاً في كتاب الشفاء. وفي مجملها تمثل هذه الفكرة الأطروحة الأساسية في علم النفس الفسيولوجي المعاصر. وهذه الفكرة السينوية لم ترد في كتابات المشاهير الذين سبقوه فأرسطو مثلاً استبعد مبدأ العلاقة بين الجهاز العصبي والنشاط النفسي، أما جالينوس فقد اكتفى باعتماد العلاقة بين الدماغ والوظائف النفسية دون الدخول في أي تفاصيل تذكر" (ص. 37).

وفي ضوء الدراسات المعمقة في التراث العربي الإسلامي والمصاغة بعناية، تسابل طه (1995) كيف تأثر علم النفس المعاصر بسيكولوجيا التراث؟ وللإجابة على هذا السؤال يقول بأن بدايات علم النفس المعاصر في القرن التاسع عشر في الجامعات الألمانية علي يد فيبر وفخنر وفونت تركزت بصفة أساسية على الإدراك الحسي وبصفة خاصة على الإدراك البصري. وأيا كانت المراجع والدراسات والأحداث العلمية التي ألهمت هؤلاء العلماء الألمان ليضعوا اللبنات الأولي لعلم السيكولوجيا، فليس من المبالغة القول أن كتاب المناظر كان أحد أهم مصادرها، إن لم يكن أهمها على وجه الاطلاق. وفي دراسته العلمية عن

"الفلسجة العصبية في كتاب القانون في الطب" والتي عالج فيها طه الأسس البيولوجية للسلوك كما عند ابن سينا وكيفية عمل الدماغ، وسيكوفيزيولوجيا البطينات، ونظرية الاتصال العصبي، ومفهوم الروح العصبي والنخاع الشوكي والأعصاب الدماغية والنخاعية وكذلك دراسة طه عن "سيكوفيزياء الابصار عند ابن الهيثم" والتي عالج فيها موضوع الادراك البصري تجعلنا نتساءل مجددا لماذا تطورت أبحاث الإدراك الحسي في تلك المرحلة الباكرة من تاريخ العلم؟

وللإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأن هناك تقدماً كبيراً في العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية في علمي الفلك والطب . ففي النصف الأول من القرن الحادي عشر ازدهرت الأبحاث السيكولوجية المرتبطة بالحواس . ويعتبر هذا الازدهار استجابة طبيعية للحاجة لتلك الأبحاث في علم الفلك والطب. ففي علم الفلك هناك أهمية لدراسة العين لارتباطها المركزي بكيفية الرؤية للكواكب أو الأفلاك في المراصد الفلكية. وفي علم الطب هناك أهمية للمعرفة الخاصة بالحواس الخمس. ووفقاً لذلك تطور علم البنية العضوية (التشريح) وعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا). وازدهرت المعرفة السيكولوجية بصورة مذهلة وتوفرت موسوعات علمية تتمثل في "كتاب المناظر" لابن الهيثم الذي عالج فيه حاسة البصر لوحدها و"كتاب القانون" لابن سينا والذي عالج فيه الحواس مجتمعة. وعالج كتاب المناظر تحديداً لأول مرة في تاريخ العلم المنهج الاعتباري (التجريبي) فضلاً عن ذلك عالج قوانين الإدراك البصري والتي لم تلفت انتباه علماء النفس في الغرب إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. ويمكننا القول بأمان بأن أهمية مساهمة ابن الهيثم في دراسة الادراك البصري في القرن الحادي عشر لا تقل عن مساهمة قبسون في معالجة ذات الموضوع في القرن العشرين (الخليفة ، 2001).

بالرغم من كشوف طه المدهشة في تشريح النصوص السيكولوجية في التراث العربي الإسلامي لكن لم يتحدث في كتابه عن منهج أو نظام فريد في كيفية تفكيك هذه النصوص إنما قدم نموذجا متكاملا يحتاج للدراسة من قبل طلاب علم النفس. ربما لا يعرف الباحث بأن ما قام به في موسوعته يمثل أول اكتشاف للسيكوفيزياء عند ابن الهيثم، كما لا يعرف

بأن هذا الإحياء الذي قدمه في كتابه "علم النفس في التراث العربي الإسلامي" يمثل ثورة في تشريح النصوص السيكولوجية ربما يطلق عليها يوما "المنهج الزبيري" اذا استخدمنا اسم المؤلف الأول أو "المنهج الطاهوي" إذا استخدمنا الاسم الأخير في قراءة النصوص أسوة بإسهامات صلاح الدين المنجد وعبد السلام هارون في تحقيق التراث العربي. بهذا الاكتشاف والاحياء مهد طه طريقا جديدا متحررا من أفكار السابقين له من طلاب علم النفس العرب في قراءة التراث وبذلك يتوقع أن تحتل مساهمته البحثية في كتابه القيم مكانا مركزيا بين الكتب الكلاسيكية في علم النفس في العالم العربي. من ناحية تاريخية، عليه يمكن إطلاق اسم الباحث كأول من قام بتشريح النصوص السيكولوجية بصورة معمقة أكثر من إطلاق الاسم على أي عالم نفس عربي آخر ، مثلا مراد في علم الفراسة عند الرازي، أو نجاتي في الإدراك الحسي عند ابن سينا، أو الحاج في الاشتراط الكلاسيكي عند الغزالي، أو الخليفة في "علم النفس التجريبي في التراث العربي الإسلامي".

وفي عام 2001 السنة السادسة لنشر كتاب طه والذي دشن فيه ملامح المنهج السيكولوجي في تفكيك نصوص علم النفس في التراث قام الخليفة باستلهام حفريات طه وتقديم الكشوف التجريبية الاعتبارية في علم النفس في التراث العرب الإسلامي مواصلاً المشوار الذي بدأه أستاذه. وربما بذات الكيفية التي واصل فيها طه مشوار أستاذه بدري. وركز الخليفة على منهج ابن الهيثم الاعتباري الذي يعتمد على الملاحظة العلمية وبذلك يعتبر ابن الهيثم الرائد لهذا المنهج العلمي الهام ليس في علم النفس في التراث العربي الإسلامي فحسب وإنما في علم النفس كله قديمه وحديثه. وبين الخليفة استخدام علماء التراث لمصطلح "الغلط البصري" كما عند ابن الهيثم و"الخطأ البصري" كما عند ابن سينا منذ النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي والذي سمي لاحقا بالخداع البصري في علم النفس الحديث. وأظهر الخليفة كيف ازدهرت أبحاث سيكولوجيا الإدراك البصري في تلك المرحلة الباكرة من التاريخ. وتوضح مساهمات بدري وطه والخليفة عن طبيعية التأثيرات المتبادلة بين ثلاثة أجيال من طلاب علم النفس العرب.

كثيراً ما يستخدم طه (1995) في كتاباته مفهوم "التأصيل" وهو مفهوم مقارب لمفهوم "التوطين من ضمن" بالنسبة لعلم النفس (الخليفة، 1999، 2000) الذي يرتبط ببروز الدعوة لعلم النفس الإسلامي، أو كيفية تكييف علم النفس لينسجم مع البيئة المحلية، أو كيفية فهم المجتمع من خلال مفاهيمه النفسية. ولقد نشأت دعوة التأصيل وفقاً لطه من عدم استساغة علم النفس الغربي في المجتمعات غير الغربية ومن بينها العالم العربي. بوسعنا القول بأن الحركة الناشئة لتأصيل وبلغة أفضلها "توطين" علم النفس في العالم العربي عامة والسودان خاصة، ربما تكون هي ثمرة للجهود الجبارة لبدري وطه في فلسفة قراءة التراث العربي الإسلامي وتجديده واحيائه وأخذ العبر منه.

إن سلسلة أبحاث طه الرصينة المنشورة في كتابه "علم النفس في التراث العربي الإسلامي" ربما هي الأكثر توطينا لعلم النفس. في تقديري، وربما تنتظر هذه الأبحاث سنوات لتبيان تأثيرها ليس على طلاب علم النفس في السودان فحسب وإنما في العالم العربي والإسلامي. وبسبب غناء فصول الكتاب وفردانيته يتوقع أن يكون له تأثير في تاريخ علم النفس كافة وعلى أقل تقدير أن يكون جسراً ما بين تاريخ علم النفس في التراث العربي الإسلامي وتاريخ علم النفس الغربي.. وفي هذه الحالة يمثل الكتاب فكراً سيكولوجياً عالمياً منطلقاً من البيئة المحلية مستخدماً أدوات علمية في كيفية تشريح النصوص السيكولوجية وتفكيكها كاسراً بذلك الحاجز النفسي للاتجاه نحو الابداع السيكولوجي. إذ يحتاج طلاب علم النفس في العالم العربي من الخروج من قوقعة استيراد علم النفس لمرحلة دراسة التراث في مستواه التاريخي فضلاً عن مستواه الشعبي. وبهذه العينة من الخروج ينتقل موقع علماء النفس العرب من الهامش إلى المركز وهو الشرط اللازم للمشاركة في ضفيرة علم النفس العالمية التي تعبر عن الفكر الانساني أجمع.

لقد أشرنا سابقا للتأثير المحدود لتدريب طه في علم النفس البحت على طلابه في الدراسات العليا في السودان. ويمكننا أن نجد تفسيرا غامضا للتدريب المبكر لطه في علم النفس الفسيولوجي والتجريبي في بريطانيا في قراءته وتشريحه للنصوص السيكولوجية في التراث العربي الإسلامي ، إذ تعلم طه أساليب الملاحظة التجريبية الدقيقة والمضبوطة في

المعمل كما في علم الفسيولوجيا والتشريح ولكنه حولها لقراءاته وحفرياته في التراث العربي الإسلامي. ومن الممكن ربط مساهمة طه بالملاحظين التجريبين الجيدين مثل ابن الهيثم كما بوسعنا القول بأنه ينتمي لتقاليد الاستقراء كما في كتاب المناظر، فالملاحظ الجيد يلاحظ التعميمات الهيثمية في معلوماته السيكولوجية. وبلغة أخرى، يمكننا القول بأنه استفاد من تقنيات البحث العلمي البحت في الغرب لذا حورها لمجابهة قضايا علم النفس في ثقافته. إذا قدم طه بذلك مشروعا سيكولوجيا جديدا في كيفية التعامل مع النص السيكولوجي في التراث وأرسى بذلك ملامح لمنهج جديد لتحقيق التراث السيكولوجي. وبوسعنا التساؤل هل أوجد طه منهجه التفكيكي والتشريحي للنصوص السيكولوجية في التراث العربي الإسلامي أم أن بداية حركة توطين علم النفس الحالية في العالم العربي عامة والسودان خاصة هي التي احدثت هذا المنهج الذي يعبر عنه طه؟ في كثير من الأحيان يصعب علينا أن نحدد السبب من النتيجة.

وبوسعنا التساؤل كذلك هل كانت مساهمات طه المعمقة في التراث العربي الإسلامي هي استجابة طبيعية ليست لحركة التوطين الحالية إنما لحركة توطين علم النفس في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي؟ وربما نتساءل هنا كيف ارتبط علم النفس بأسره ببقية العلوم في الحضارة العربية الإسلامية؟ ربما يمكننا القول بأن العلماء المسلمين وإيمانهم بقيمة جمع المعلومات من التراث الإغريقي خاصة، وإجراء التصانيف العلمية، وتدقيق الملاحظات الفيزيائية وترحيبهم بالعلوم الفلكية كما عند ابن الهيثم خاصة دراسته عن خداع القمر وترحيبهم بالعلوم الطبية كما عند ابن سينا خاصة في علم البنية العضوية وفي فسلجة الدماغ. ولكن يلاحظ في توثيق علماء النفس العرب لمساهمة العلماء العرب المسلمين في علم النفس يندر أن يذكر اسم ابن الهيثم. ولكن يبدو أن العلماء العرب أنفسهم قبلوا الطب أكثر ولهذا السبب كانت هناك عشرات الشروح لكتاب القانون لابن سينا بينما هناك شرح واحد لكتاب المناظر لابن الهيثم وهو تنقيح المناظر لكمال الدين الفارسي. ان روح علم النفس في الحضارة العربية الإسلامية ربما كانت أكثر استقبالا لعلم النفس في

الطب مقارنة بعلم النفس في الفلك بالرغم من أن الأخير كان أكثر دقة وتجريبية. وإذا كان هناك شيء يحسب لطه في دراسته الرائدة عن "السيكوفيزياء عند ابن الهيثم" خاصة بأنه لا يمكن الحديث عن علم النفس في التراث العربي الإسلامي من غير أن يكون ابن الهيثم هو الشخصية المركزية في علم النفس. وفي الوقت نفسه لا يمكن الحديث عن توطين علم النفس من ضمن من غير أن يكون ابن الهيثم هو الشخصية المحورية في ذلك. إنه باختصار يمثل النموذج الأمثل لعلم النفس منذ القرن الحادي عشر الميلادي الذي ارتبط بالمعرفة المرتبطة بحاسة البصر.

ومن جراء حفريات طه المعمقة كيفية التعامل مع النصوص السيكولوجية في التراث العربي الإسلامي تجعلنا كذلك نتساءل لماذا هجر علماء النفس العرب التراث السيكولوجي منذ عهد ابن الهيثم وبذلك انفصلوا عن المصدر العلمي الأول المبدع لعلم النفس الموطن في القرن الحادي عشر الميلادي ؟ أين مسؤولية علماء النفس العرب من التراث السيكولوجي كمسؤولية هؤلاء العلماء العرب الذين أبدعوه؟ ولماذا انفصل علماء النفس العرب من علم النفس التجريبي الصارم في الغرب؟ و لماذا يختلف موقف عالم النفس العربي من تراثه العربي الإسلامي من موقف عالم النفس الأوربي من تراثه الإغريقي والروماني؟ وبلغة أخرى، هناك علاقة قوية بين عالم النفس الأوربي وتراثه وعلاقة واهية بين عالم النفس العربي وتراثه الإسلامي فلماذا؟ ولماذا نجح علم النفس الغربي في إنشاء قواعد راسخة له في التراث الإغريقي؟ وأخيرا لماذا استلهم الأول تراثه واعتمد عليه في تطوير علمه نحو المستقبل بينما لم يستلهم الآخر تراثه ليجابه به مستقبله؟

المراجع العربية:

1) بدري، حرم (يناير، 2004). مقابلة شخصية، قسم علم النفس، جامعة الخرطوم بتاريخ 17 يناير 2004.

2) بدري ، مالك (1989). مشكل أخصائي النفس المسلمين. ترجمة منى أبو قرجة. الخرطوم: شركة الفار ابي للنشر.

3) بدر، رقية.، طه، الزبير(2002). تأهيل ذوي الحاجات الخاصة داخل المجتمع. أم درمان: مطبعة الحرية.

4) الخطيب، عبد الرحمن (فبراير، 2004). مقابلة شخصية، قسم علم النفس جامعة الخرطوم، 25 فبراير، 2004.

5) الخليفة، عمر(2000). توطين علم النفس في العالم العربي: دراسة تحليلية لأبحاث الإبداع والذكاء والموهبة. مجلة جامعة أم القرى، 12، 53–33.

6) الخليفة، عمر(2001). علم النفس التجريبي في التراث العربي الإسلامي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

7) الخليفة، عمر (2003). مالك بدري رائد عملية توطين علم النفس في العالم العربي، دراسات نفسية، 2، 138–119.

8) خليل، عبير (يناير 2004). مقابلة شخصية، قسم علم النفس، جامعة الخرطوم بتاريخ 26 يناير 2004.

9) شنان ، أحمد (أبريل، 2004). مقابلة شخصية، مدرسة القبس بالعمارات شارع واحد، الخرطوم، 5 أبريل، 2004.

10) شنان، احمد (2002). قراءة في كتاب علم النفس في التراث العربي الإسلامي. التأصيل، 10، 163-173.

11) دفع الله، عبد الباقي (فبراير). مقابلة شخصية، قسم علم النفس، جامعة الخرطوم، بتاريخ، 17 فبراير، 2004.

12) طه، الزبير (1995). علم النفس في التراث العربي الإسلامي. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

13) طه، الزبير (2003). السيرة الذاتية. وزارة العلوم والتقانة، الخرطوم.

14) عطاء الله، صلاح.، والشيخ، فضل المولى (2003). رسائل الماجستير والدكتوراه في علم النفس بجامعة الخرطوم في ربع قرن : دراسة توثيقية تحليلية. دراسات نفسية، 2، 173–194.

15) قور، أبو القاسم (مارس 2004). بدايات قرن: قراءة في ورقة الدكتور عمر هارون. الصحافة الثلاثاء، 2 مارس، 2004.

16) كردمان، صلاح (2003). مساهمات بعض الباحثين السودانيين في مجال علم النفس (مدرسة الخرطوم). رسالة ماجستير غير منشورة. قسم علم النفس، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان.

17) نجاتي، محمد (1980). الادراك الحسي عند ابن سينا. بيروت: دار الشروق.

18) النحاس، عزة (يناير 2004). مقابلة شخصية، قسم علم النفس، جامعة الخرطوم بتاريخ 26 فبراير، 2004.

المراجع الإنجليزية :

1. A1-Awad, A., Shennan & Sonuga-Barke, E. (1992). Childhood problems in a Sudanese city. A comparison of extended and nuclear families. Child Development, 63, 906-914, USA.
2. Badri, M. (1979). The dilemma of Muslim psychologists. London: MWH Publisher.
3. Badri, M. (2000). The AIDS crisis: A natural product of modernity 's sexual revolution. Kuala Lumpur: Medeena Books.
4. Boring, E. (1957). A history of experimental psychology. New York Appleton-Century Crofts.
5. Khaleefa, O. (1999). Research on creativity, intelligence and giftedness: The case of the Arab world. Gifted and Talented International, 14, 21-29.
6. Taha, Z., Mohamed, A. (2005). Introduction to biology of behavior. Khartoum: Ministry of Culture.